

بين الاحصاء السياسي والاحصاء العددي من قال إن المسيحيين باتوا أقلية؟

غالبا ما نقرأ في الصحف ومنها "النهار" تعليقات حول مواقف من يتعاطون الشأن العام، ومعظمها مستند الى فرضية ان المسيحيين في لبنان هم أقلية. وآخر ما قرأته هو مقالة الاستاذ سركيس نعوم المنشورة في الصفحة الثانية من "النهار" الصادرة يوم الجمعة ١٥ تشرين الثاني ٢٠٠٢ يقول فيها ما حرفيته: "... بقاء المسيحيين في لبنان وحماية دورهم السياسي... المهتد... من عوامل متنوعة مثل تحول المسلمين أكثرية في البلاد...".

ويضيف في مكان آخر: "... التمسك باتفاق الطائف لسبب المناصفة في المواقع الكبرى السياسية والادارية التي نصر عليها رغم تحول المسيحيين أقلية".

لست في معرض الرد على محتوى المقال او تحليل مضمونه انما أريد فقط ان أتناول مسألة الاكثرية والاقلية فأسال:

أولا - هل جرى في لبنان احصاء دقيق يبين عدد أبناء كل طائفة وبالتالي عدد اللبنانيين جميعا حتى يستند المحللون الى هذا الاحصاء؟

ثانيا - اذا كانت هناك احصاءات تقريبية او عينية فهل شملت هذه الاحصاءات جميع المسجلين في دوائر النفوس ام اكتفت بنماذج من التجمعات الموجودة في مناطق معينة؟

ثالثا - هل شملت هذه الاحصاءات المجنسين الجدد والمغتربين المقيدون في السفارات اللبنانية المنتشرة في دول العالم، أم اكتفت بالمقولات الشعبية التي تتحدث عن انتشار أعداد وهمية وخيالية تعيش هنا و هناك؟

رابعا - ما المانع او الموانع من اجراء احصاءات دقيقة باشراف مؤسسات رسمية عالمية او باشراف الامم المتحدة؟ هل الواقع الاجتماعي لبعض الطوائف في لبنان يمنع مثل هذا الاحصاء؟ أم الوجود السكاني في اكثر من منطقة يشكل عائقا في طريق الاحصاء الدقيق؟ ام ان هذا الوجود المزوج يفضح الوهم وتظهر الحقيقة التي يحاول كثير من الرسميين والجاهلين نشرها في أذهان الناس تضليلا لواقع معين؟

أعطي أمثلة كي لا يبقى الكلام في العموميات: الشيعة في الضاحية الجنوبية هل جميعهم أبناء الضاحية ام انهم مسجلون اصلا في البقاع او في الجنوب؟ المسيحيون في بيروت الكبرى هل جميعهم من بيروت الكبرى ام منهم هو من الشوف وعاليه والجنوب؟

ان القاموس الفرنسي "لاروس" يعطي نسبا غير دقيقة عن عدد أبناء الطوائف في لبنان، مما اضطرني الى ارسال تصحيح يستند الى وقائع ثابتة علميا، الى المسؤولين عن نشر هذا القاموس، فجعلهم ذلك يضعون علامات استفهام حول احصاءاتهم العينية غير الدقيقة. وهنا أذكر على سبيل المثال الواقع الآتي:

١- الواقع المُدني الديموغرافي. فلو استعرضنا الواقع الميداني للقرى والبلدات المسيحية المنتشرة على كل الاراضي اللبنانية لوجدنا انها تشكل بين بيروت وجبيل مدينة واحدة تتصل منازلها وتتجاور، حتى ليخيل للناظر اليها انها امتداد لبيروت. وجميع سكانها من المسيحيين. مدن الشمال وقره، عدد من قرى الشريط الحدودي المحرر، معظم مدن محافظة جبل لبنان وقرها، مسيحية الطابع والسكن. ناهيك بمسيحيي الانتشار.

٢- لو أخذنا المدارس الكاثوليكية والارثوذكسية والبروتستانتية والافرادية، زد عليها طلاب الجامعات والمدارس الرسمية المنتشرة في المناطق المسيحية والمدارس الارمنية والسريانية وسائر الاقليات غير الكاثوليكية التي تستوعب أعدادا لا يستهان بها، لوجدنا، بحسب الاحصاءات الدقيقة، انها تضم ٢٦١٠٠٠ تلميذ مسيحي عدا المسلمين، فلو قدرنا ان عائلة كل تلميذ تتألف من أبيه وأمه وشقيقين فقط لوصلنا الى ١٣٠٥٠٠٠ ناهيك بالعائلات التي تخرج اولادها من المدارس، والافراد الذين ليسوا في اي قطاع تربوي خاضع لهذا الاحصاء.

كل هذا يشير الى ان الارقام التي يفترضها الباحثون والسياسيون مغلوطة عن قصد او جهل، او ان المطلوب خلق حالة من الشعور لدى المسيحيين بأنهم أقلية، وعليهم الرضى والاذعان او الاستسلام لمشاريع التنويب.

ولا يجوز ان نعتبر الهيمنة السياسية قياسا للعدد. كما لا يجوز ان نعتمد المشاركة في الانتخابات مقياسا آخر، لان المقاطعة موقف سياسي ولا تشير الى العدد الدقيق للمسيحيين او سواهم.

لذلك ألفت انتباه المسؤولين والدارسين الى هذا الواقع حتى يتجنبوا الوقوع في فخ المغالطات المطلوبة او المدسوسة.

الأب كميل مبارك / عميد كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية في جامعة الحكمة